

عفوا أيها النقاد !

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

أطلب اليكم المغفوا يا معشر الناقدين ، فاني لا أقصد بهذه الكلمة إلا الدعاية والمفاكحة — فقد رأيت الصيف قد اشتد ، واحتدمت وقده ، وأردت أن أتقرب اليكم بما يزيل لسنته أو يخفف منها — ولا أدري ما الذي أغراني بهذه المداعبة الخطرة ، فوالله لقد كنت أرى أن مداعبة الفهود والنمور أهون أمراً وأسلم عاقبة من مداعبة نقاد الأدب . ولقد كانت دوني لو أردت مندوحة عن ذلك الترض ، فلو شئت لداعبت الأدباء كافة ، ولم يكن على بأس منهم ، فاني لا أخشى من الأدباء بطشاً ولا صولاً ، لأنهم يسيلون رقة وليونة ، وقد طبع الله في قلوبهم وداعة وسلاماً ، فتمهم من يأخذهم الجمال فيسلم له قياده حتى ليصير كالحمل يصرفه أضعف الخلق كيف يشاء ، وإن منهم من قد استعرقه الفكر وغلب عليه فلا تراه إلا حلاً لا يكلف أحداً مؤونة في تصريفه ولا مشقة في معاملته — فهؤلاء لا يأتي خوف من قبيلهم ولا يتكلف المرء حيلة في معاشتهم — ولكن الناقد — والله يكلؤنا بمحايته ، فيه سلاية ، وله شوكة ؛ فهو دائماً معقود الجبين على الصرامة ، معلق العينين على اليقظة ، كثير التجهم واللوم ، فإذا أخذته الرقة أحياناً رأته يرت على كتف الناس متنازلاً من عليائه ، وكل حركة من حركاته تم عن دخيلة نفسه وكين عقيدته ، إذ كما يقول عند ذلك : « إنا نمطف على هؤلاء الساكنين تشجيعاً لهم حتى لا تنكسر قلوبهم »

لست أدري ما الذي أغراني بهذه المداعبة إلا أن يكون هذا الصديق المجيب التأثير الأستاذ أحمد حسن الزيات ، فإنه منذ كتب في النقد وأنا أمانع نفسي وأغالبها لكي أمتنع عن الخوض في الميدان الذي أثار غباره — ثم هأنذا تغلبني نفسي على الأمر ، فأكتب للنقاد مترضاً لما يتعرض له الداخل إلى حظائر السباع على أني مع ذلك قد قدمت في أول قولي أني إنما أذاعب ولا أقصد إلا المفاكحة — فلعل تقدي على هذا النحو يلوي عنى

الشوكة التي أخشاها ، ويكف عنى الغضب والنقمة

لقد حمل الأستاذ أحمد الأمين يمن إلى عصر مضى من مصور

إفلاستا . هذه مبالغة خطيرة وأخطر ما فيها أننا نريد بها المبالغة في الدلالة على الأشياء ، فتقلب مبالغة في الدلالة علينا نحن وعلى كذب طبعنا وعلى قوضى العقل فينا . نعم وحتى تثبت أننا لا نعزم لنا من كونها مبالغة لا تدقيق في معناها ، وأن لا صبر لنا من أنها لا ثبات لحقيقتها المهزومة ، وأن لا شدة لنا في طلب الحق لأننا بها من أهل الغفلة في وصف الحق ، وأننا لا تمثل المواقب إذ نرسل الكلام أرسالاً ولا نخشى ما يكون من عاقبته . وأيسر ما يفهم من هذه المبالغات التي أصبحت طريقة من طرق الشعب في التمييز — أن هذا الشعب لا يصلح في شيء إلا بالحكومة ، فهو نفسه كالمبالغة ، والحكومة له كالتصحيح . وهذه هي العلة في أن الشعب الكذوب يلجأ إلى حكومته في كل كبيرة وصغيرة في العمل ، كما أنها هي العلة في أن حكومته تكذب عليه بكل صغيرة وكبيرة في السياسة

ومن أثر الكذب الشعبي والمبالغة الشعبية ما تراه من اهتمام كل فرد بما يقول الناس عن أعماله فيديرها على ذلك وإن قات متفعتها ، وإن فسدت حقيقتها ، وإن جلبت عليه من الضرر في ماله ونفسه ما هي جالبة ؛ فقاعتهم هي هذه : ليس الشأن في الحياة للعمل في نفسه ولكن فيما يقال عنه ، فان لم يُقل شيء فلا نعمل شيئاً . . .

هذه يا بني أمة لا يكون حكمها إلا مبالغات أيضاً

قال صاحب السر : وارتفع من الطريق صوت بائع يتادى على سياسته : أحسن من التفاح يا طهاطم . . .

فضحك الباشا وقال : هكذا يقولون لنا عن الطهاطم السياسي العففين ، إنه ليس تفاحاً وحسب ، بل هو أحسن من التفاح إن الأمة لن تكون في موضعها إلا إذا وضعت الكلمة في موضعها ، وإن أول ما يدل على صحة الأخلاق في أمة كلمة الصدق فيها ، والأمة التي لا يحكمها الصدق لا تكون معها كل مظاهر الحكم إلا كذباً وهزلاً ومبالغة ما

(سيرى بشر يا كسرية)

(إلى الصابرة) : أحضر إليك من عدم الرد على كتابك ، فقد أمنت بين أوراق فضاع عزائك فيه (الرائع)

الأدب في مصر ، وجمل يميز نقاد العصر الحاضر بالتصغير والميل حتى لقد استعبرت من قوط الأسي على ما فات عصرنا الحاضر من جليل النفع . ولكني ما لبثت أن أفقت من أثر قوله وجمعت أرجع بالذهن إلى العصور التي شهدتها فلم أجد ذلك العصر الذي يؤنبه ويذكر عماسته ؛ ظله يشير إلى عصر لم أشهده ولم أعرف شيئاً عنه ، وذلك أني لم أجد بعد حلقة المحسنين من السن ولا علم لي بما كان قبل ذلك ، وإنني لم أدرك ما كان حولي إلا نحواً من ثلاثين عاماً ، وليس في هذا ما يكفي لأن أرد على الأستاذ حكمه ، فرجأئ إليه أن يحدد ذلك الماضي أين وقع ؟ وهل كان منذ ثلاثين عاماً أم كان منذ أربعين أو خمسين ، فهو أعلم بما يقول مما شهد في حياته المباركة إن شاء الله

على أني إذا كددت الذاكرة في السنوات الثلاثين التي أدركت فيها ما كان حولي لم أذكر إلا محاولة ضئيلة في النقد كان أكثرها من شبان أكبر منهم أن تذكر أسماءهم إلى جانب الأسماء النابهة في عصرهم — ولقد كانت وسيلتهم دائماً أن يتالوا من مقام أدب نابه لمجت الألسنة بذكره ، لا يقصدون النقد والحق ، ولكن يقصدون أن تتحول الأنظار إلى شخصهم . ولست أذكر فيما أذكر من تلك السنوات أن تعرض نقد تعرضاً يذكر إلا لأمثال شوق وحافظ — كأنما النقد قد صب سباً في قالب واحد ، فهو لا يتسع لغير الشعر وقصائده ودواوينه ، وأما ما عدا ذلك فلا أذكر أن قامت معركة على كتاب من الكتب التي نقلها الأستاذ الكبير فتحي زغلول ، ولا على كتاب مثل (الترية الاستقلالية) ، بل لا أذكر نقداً يذكر قائل به النقاد ترجمة حافظ لجزء من البؤساء ، أو قصة (زينب) الهيكلية ، أو ما ألفه المنفلوطي ، أو الأستاذ فريد وجدي

وإنني كلما أدت الفكر في ذلك العصر الماضي لم أجد إلا محاولات بسيطة تشبه محاولات الطفولة في النقد — وقد صدق الأستاذ هيكل في تصوير ذلك إذ قال إن النقد أول ما يعانیه الأديب الناشئ من المحاولات

فإن كان لنا من تعرض الى ذلك الأمر فانا نحمد الله إذ انقضى ذلك العصر بما كان فيه

فهل في شرعة الانصاف أن يتوفر مؤلف على كتاب لا يزال دائباً على البحث من أجله ، ويقضى النهار والليل في التحقيق

والثبث ليخرج به على الناس فيجلو لهم أموراً كانت من قبل مظلمة ، ويبين لهم مواطن كانت مهمة غامضة ، فإذا به يرى ناشئاً من الشباب يريد أن يحول الأنظار اليه فيتناول ذلك الكتاب المسكين بالنقد ولا يزال به حكا ونجربحاً بيد ثقيلة غير صناع حتى يدميه ويلهبه ؟ إن هذا اذن لشبيه باليتيم المسكين الذي يذهب الى الحلاق ليسوي له شعره ويزيل عنه الثمت والأغبار فإذا بذلك الحلاق يدفنه الى أحدث صيانه وأقلمه مهارة ليتعلم الصناعة في رأسه . لا . لا . فالهم حوالينا ولا علينا . فإكان لنا أن نلوم شباب اليوم كما يجب لنا الدكتور هيكل أن نفعل ، بل إن غلينا أن نحمد فيهم ذلك العقل الراجح وهذا الذوق الجليل الذي حدا بهم الى تجنب النقد في هذه الأيام ؛ وإنها لمنفعة لصرنا أن موجة النقد قد ركبت فيه ما دام ذلك النقد لا يقوى إلا إذا أخذ به الشباب الناشئ ليجمعه وسيلة ليظهر للناس مقدرة على الكلام والكتابة وتدوير المعاني وتلفيقها

على أني أرجو أن يغفر لي النقاد إذا قلت لهم إن هذا العصر لا يشكرهم على يد أطول من انصرافهم عن النقد . فإن الأدياء قد وجدوا في صمتهم متنفساً . وإنها لفرصة لمن شاء أن يؤلف فليقتنمها المؤلفون في غفلة من الدهر . وأي شيء أعدل وأصح من أن يؤلف المؤلف إذا شاء فإذا وجد من يقرأ له كان سعيداً مجدوداً . وللناس عقولهم ، فإذا أعجبهم ما قرأوا له أقبلوا على مؤلفاته وألقوا اليه بأنواع التحية وأشاروا اليه بالبنان كلما رأوه كما كان يفعل الناس في العصر الخوالي . وأما إذا كره الناس ما قرأوا للمؤلف انصرفوا عنه ، وحسبه بمد ذلك أن يخسر ما بذل من ثمن الجبر والورق والطبع ..

إن القوامة مكروهة أيها كانت ؛ فإذا اتخذ النقد شكل القوامة كان حربياً بأن يكون مكروهاً . هذا إذا كان القيم ممن يحسبون السيطرة ويمسولون في الهيمنة — فإ بالنابه إذا كان يسرف ويبدل ؟ وإلا فوايم الله إن من النقاد من لو حكمت في أمره لأصرت جميع بانئي الأقالام من كل الأنواع بأن يمتنعوا عن أن يبيعوه فلماً واحداً . وإنني لأذكر أحد هؤلاء وهو ممن تزعموا في المروبة وقد نقد كتاباً مترجماً عن الإنجليزية في تاريخ مصر . ولم يشأ أن يجمل نقده لذلك الكتاب في مقالة مفردة فقرن بينه وبين كتاب في فن (الطهي الحديث) وأطايه . ولقد رأيت

إليه فأرسلت إليه بمؤلف آخر لا يقل في حقارته عن المؤلف الأول ،
وقلت في نفسي إنه في هذه المرة لا بد واثب على كتابي ، وممزه
كل ممزق - ولبنت أنتظر طمئنته وأنا متوار ، وطال بي الانتظار
على غير جدوى ، ففرت أن من الكتب ما ينحط عن مقدار النقد ،
ولو قد تكرم ذلك الناقد فقال لي كما قال مرة لأحد الشعراء :
« إنك لا تعرف شيئاً » لما تأملت مثل تألبي من سكوتة عني ، لأنني
كنت عند ذلك أفاخر الناس بأن ذلك الأديب قد قرأ كتابي ،
وحكم على باني لا أعرف شيئاً . ولا يجب في ذلك ، فقد كان من
أجدادي رجل - كما كان من أجداد كثير من القراء مثل
جدي - أقول كان من أجدادي رجل إذا امتنع عن دفع المال
للحاكم أمر المدير فأحضره وألب ظهره بمائة سوط - فكان
إذا أفاق من غشيتته بمد الضرب بضحك ويقول : « الحمد لله إذ
ضربني المدير بنفسه » ثم نظر إلى الحاكم الغاضب وضحك مرة
أخرى وقال : « ضريك شرف بإسعادة اليك ! »

وبعد فلقد أنساني آخر الكلام أوله ، ولا بد من أن أعود إلى
ما كنت فيه . أقول إن أخالف الأستاذ أحمد الأمين في رأيه كل
المخالفة ، ولا أذم النقاد في عصرنا الحاضر ، بل إن أشكرهم وأعداهم
مكرمة عظيمة أن قروا في النقد وخشعوا عنه . ولعل فيما قدمت
من قولي ما يقنع الأستاذ ومن يرى رأيه بأن واجبنا أن نحمد الله
على قلة النقد وتعفف الناقد من عنه ، واقتصارهم على الاعلان والمجاملة
أحياناً ، أو التجهم أو التنكر أحياناً أخرى بحسب مكان المؤلف
منهم وهل هو صديق أم هو بئس ؟ فلقد أدرك الناس منهم ذلك
واطمأنوا إليه . فإذا أراد الأستاذ بعد ذلك أن يستمر في الحاجة
والناقشة فإني مضطر إلى أن ألفتني إلى ركن لا يستطيع فيه
القاومة ولا يجيد لنفسه مناصاً من الاقرار لي بالغبلة - وذلك
أنه قال إن التأليف قد زاد في عصرنا - أليس كذلك ؟ ثم قال
إن النقد قد ركد كذلك في عصرنا - أليس كذلك ؟

أفلا يرى الأستاذ اللوذعي أن هاتين الحقيقتين منذ تلازمتا
كانت إحداهما نتيجة للأخرى ؟
فإذا أراد الأستاذ أن يستمر التأليف على نهجته كان عليه
أن يترك النقد تماماً ولا يوظفه

أيحاول الأستاذ الأمين بعد هذا مجادلة ؟

محمد فريد أبو حميد

ذلك الكاتب المفضل بعد ذلك ينتقل في النقد ما بين المعلوم
والفنون فضرِب عاقاه الله في التاريخ والتصوف والحديث واللغة
والدين والفلسفة . ولا أعلم بعد إذا كان قد بلغ حظائر الطب
والموسيقى والفلك أم هو سائر في طريقه إليها . ولم يكن هذا
الناقد فذاً في هذا النهم العلمي ! بل لقد رأيت علماء من أعلام النقد
في مصر يستعرض سلسلة من المؤلفات ويبدى رأيه في كل منها ،
ويهرز رأسه عند الانتهاء من نقد كل منها ، ويلس لحيتته لس
الفلاسفة الأقدمين ! وكأني به قد نسي أن العصر قد تقدم على
عهد سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وأن الناس قد أخذوا الحام
أخذاً شديداً فلم يدعوا فيها شجرة واحدة . ولقد رأيت كاتباً عبقرياً
أخذ على نفسه أن ينقد الأدباء . وواتاه القلم على عادته وأصاخ له
الناس على عادتهم ، وهو إذا تكلم أو كتب فالتاس كلهم أسمع
ثم استعرض بين حين وحين كتاباً فكان كل ما استعرضه
أو جله دواوين للشعر ، وهذا حسن ، فله قد خصص نفسه للغة
وما يتعلق بها ، وقرأت نقده كما قرأه الناس فكان لبقاً كمادته حلو
الحديث مما وجهه الله في أسلوبه ، ولكنني لم أستطع أن أفهم ما قال .
فلقد كان قوله إما مدحاً يسر الخاطر ويشرح الصدر - أنصد
صدر المؤلف المدوح ، وإما ذمياً يكسر القلب ويدي الفؤاد -
وإن لم أكن أحد هؤلاء الشعراء فلماذا لم ينلني ذمه بالأم ولا
مدحه بفرح ، وعلى ذلك خرجت من كل ما كتب ، ولم ألقه شيئاً ،
ولم أعرف ماذا أراد أن يقول

إن أغلب ظني أن الضباوة هي التي قد حالت بيني وبين فهم
بأقال ذلك الأديب الكبير ، ولكنني لم أسأل أحداً من أصدقائي
عن رأيه إلا وجدته على مثل حظي من الضباوة وقلة الإدراك
ولهذا السبب كان ذلك الأديب كثير التردد والتقلب في رأيه ،
فبينما هو اليوم يصفق إعجاباً بشاعر أو يصيح تقييراً لأديب ، إذا
به بعد قليل وقد لمح من ذلك الشاعر أو من ذلك الأديب مكراناً
لقتله أو جعوداً لجيله فينقلب مدحه إلى ذم يكاد الدم يسيل
من وقفه

ولقد حسبت مرة أن ذلك الأديب الكبير قد خصص
نفسه للنقد حقاً ، فأرسلت إليه بمؤلف حقير لي ثم تواريت
خجلاً وجلت أنتظر نقده وأقرأ جرائده كل يوم مدة طويلة حتى
سكنت ولم أظفر بشيء . ثم نسيت ذلك الأمر وعدت بعد سنوات